الفصل الثاني

الديانة

لهذا العنصر أثره الواضح في حضارة الإنسان. وفي حالات كثيرة تعكس الفنون روح الديانة وإيحاءاتها في الأفراد. ومن الجلي أن مستوى ديانة ما يعكس المستوى الفكري لمجموعة الناس التي تعتقد بها.

كما هو الأمر مع عناصر الحضارة المتعددة، تخضع الديانة إلى عامل الاقتباس والتعديل، على الرغم من أنها العنصر الأكثر حساسية. وكأمر بديهي أنها كلما كانت متأخرة زمناً بالنسبة لمعتقدات أسبق، رافق التداخل والتعقيد والابتعاد عن الأصول الأولى.

حينما نأتي إلى الديانة اليونانية، المتأخرة زمناً عن ديانات الشرق العربي، ينبغي تحديد عناصرها وإيضاح مدى خضوعها للأفكار السابقة لها، كأسماء الآلهة ووظائفها وعلاقتها ببعضها وبالمجتمع.

ليس سهلاً على الباحث أن يحيط علماً بجميع أسماء ووظائف آلهة حقبة ما. وقد يكون مرد ذلك إما لقلة المصادر المكتوبة، أو لتعدد الآلهة بشكل يعطيها سمات متشابهة، وربما لمنح الآلهة ذاتها مواصفات مختلفة في أساطير متعددة. وضمن المنطق الأخير نتذكر قول الشاعر اليوناني «هزيود»[1] عندما قال عن الآلهة اليونانية: وأما «أسماؤها جميعاً فما يشق على الإنسان ذكرها»[2]. فقد كان للأنهار والجبال والسهول والوديان والينابيع إلهة، كما كان للرياح وحدها عدد من الآلهة مثل بورياس، زفر، نوتس، يوردس، سيدايوس، وغيرها[3]. كما تصور اليونان أن أرضهم مليئة بالجنيات التي أطلقوا عليها «سليني»[4].

١- هزيود: شاعر يوناني عاش في بداية القرن الثامن. ق.م وله أشعار تعليمية أدبية تعرف بـ «الأشغال والأيام».

٢- ديورانت، ول؛ قصة الحضارة، (ترجمة محمد بدران)، القاهرة، 1969، ج 1، م 2، ص 321.

٣- ديورانت، ول؛ قصة الحضارة، (ترجمة محمد بدران)، القاهرة، 1969، ج 1، م 2، ص 321.

٤- المصدر السابق، ص 321.

كانت آلهة وادي الرافدين والنيل موطنها السماء والأرض، وما قيل في اليونانية «كانت الأرض، لا السماء، موطن معظم الآلهة اليونانية»[1]. وحينما ننطلق من المبدأ المذكور لتقرير مدى نضج فكر ديني معين، فإنه يمكن القول إن آلهة السماء كانت مرحلة تالية للآلهة الأرضية، لسبب بسيط: أن محيط الأرض أقرب إلى مدارك الإنسان، وعليه فإن انتقال الآلهة إلى السماء ما هي إلا مرحلة تبريرية لما فشلت في تحقيقه قوى وطقوس آلهة الأرض، حينما لاحظ الإنسان وجود قوى أخرى غير الأرضية في مصيره والأرض ونتاجها، الأمر الذي دفعه ليدخل الكواكب السيارة وغيرها مدخل التأليه ما دامت العناصر التي على الأرض كما هي، فمرد الأحداث المتغيرة إذاً عوالم السماء لا الأرض.

على أي حال، حينما نتمعن في مواصفات إلهة اليونان نرى منها ما هو يمثل الكواكب السيارة، ولكن حينما نأتي إلى مواصفاتها نراها متطابقة مع العديد من النقاط في مثيلتها المألوفة في أرض الفراتين ووادي النيل، وسنأتي إلى ذلك.

احتلت «الآلهة الأم» مكان الصدارة بين العبادات، إذ إنها تمثل الأرض التي تعطي الإنسان الغلة وتأويه، لقد كانت «الأرض نفسها في بادئ الأمر هي الآلهة جي Ge أوجيا gaea الأم الصابرة السمحة الجزيلة العطاء، التي حملت حين عانقها أورانوس - السماء فنزل المطر»[2]. ومن ثم لا يمكن القول إن آلهة اليونان أصيلة وليس فيها العنصر الدخيل[3]. ولكن لو تمعنا نرى أن آلهة الأرض اليونانية ذات تسمية عراقية، لأن «كي» أو «جي» هي الأرض بالسومرية[4].

من آلهة اليونان المهمة «أبولو»، الذي كان «إله الشمس المتلألئ، راعي الشعر والموسيقى والفن، منشئ المدن، مشرّع القوانين»[5]. ويقول هـ. ج. روز: «وقد ظهرت هناك إبان القرن الخامس قبل الميلاد، لأسباب خافية علينا، نظرية فلسفية تنادي بأن أبولو تشخيص للشمس، ولقيت هذه النظرية ذيوعاً كبيراً»[6]. على أي حال، كانت عبادة الشمس مهمة في وادي الرافدي والنيل، وكان في

١- المصدر السابق، ص 321.

٢- المصدر السابق، ص 321.

٣- لم يوضح ديورانت مثلاً في كتاباته المطولة عن اليونان أصول الآلهة اليونانية.

٤- كما وتوضح الكلمة «كي» قبل اسم أي مدينة كأداة موضحة. وهي تلفظ بالأكدية «رصيتو» القريبة من كلمة «أرض».

٥- ديورانت، ول؛ قصة الحضارة، (ترجمة محمد بدران)، القاهرة، 1969، ج 1، م 2، ص 331.

٦- روز، هـ. ج.؛ الديانة اليونانية القديمة، (ترجمة رمزي عبده (و) محمد سليم)، (سلسلة الألف كتاب - 569)، القاهرة، 1965، ص 76.

العراق إله العدالة ومشرع القوانين. كما ومن الجلي أن الآلهة عشتار، في الفكر العراقي القديم، هي أخت إله الشمس[1]، ولدى اليونان كانت أثينا أختاً لأبولو[2].

على الرغم من تعدد آلهة اليونان، إلا أن «أضخم مجموعة من المعبودات وأدومها كانت تلك المجموعة المعروفة باسم «الآلهة الاثني عشر»، الذين كانوا يعبدون معاً في معظم الأحيان. وهؤلاء هم: زيوس وبوسايدون وأبولو وأريس وهيفايستوس وهيرميس.. ثم هيرا وأثينا وأرتميس وأفروديتي وديمتر وهستيا»[3]. وعلى أي حال، حينما نأتي لنقارن تسميات ومواصفات الآلهة اليونانية بمثيلتها العراقية، نرى الشبه بينها واضح: فالإله «زيوس» إن هو إلا كوكب المشتري «مردوخ» وبعل السماء «بعلمشبن»[4]. أما «بوسايدون» فهو إله البحر الذي يمكن مطابقة بعض مواصفاته بالإله أيا الذي كان مقره الماء ومدينته «أريدو»، جنوب العراق، وكان رمزه السمكة، في حين كان الدولفين رمز «بوسايدون»، كما عرف بشوكته الثلاثية التي لها ما يماثلها في الفن العراقي منذ العهد الأكدي[5]. أما «أبولو»، فقد وردت الإشارات عنه وسماته التي أخذت عن إله الشمس البابلي. وإذا ما أتينا إلى «أريس»، فهو كوكب المريخ إله الحرب، وهو «نركال» السومري وإله العالم السفلي أيضاً[6]، الذي ارتبطت مواصفاته بالكوكب بالكوكب زحل إله الوباء والموت[7]. أما «هرميس» فقد قيل فيه «إنه أركادي ويوناني قح»[8]. وكان «رسولاً ربانياً، يقضي للآلهة مختلف المهام التي يطلبون إليه المقام بها، بما في ذلك الرحلة إلى العالم السفلي»[9]. كان «هرميس» (هرمز) في العصر اليوناني يمثل بشكل شخص في رأسه ورجليه أجنحة إشارة إلى تنقله مسرعاً.

وعلى أي حال، فإن «هرميس» إن هو إلا الكوكب عطارد الذي أطلق عليه العراقيون القدماء اسم «نابو»، وكان ابناً للإله «مردوخ» في الجنوب. وعُبِد في الشمال في مدينة «نمرود»، كما عبدته مدينة «الحضر»، وأشارت إليه بعض

١- وهو «أوتو» بالسومرية أو تدلنا قصة تموز وعشتار على أن هذا الإله هو شقيق الإلهة «عشتار / إنينا».

٢- ديورانت، ول؛ قصة الحضارة، (ترجمة محمد بدران)، القاهرة، 1969، ج 1، م 2، ص 322.

٣- روز، هـ. ج.؛ الديانة اليونانية القديمة، (سلسلة الألف كتاب - 569)، القاهرة، 1965، ص 322.

٤- وزيوس (زوس) هو عينه أمون إله مصر الرئيس.

5- Lahat, Rene, Maunel d, Epigraphie Akkadienne, Paris, 1955, parag. 70.

٦- الشمس، ماجد؛ «رايات الحضر العربية»، سومر، بغداد، 1980، العدد - 36، ص 197.

٧- المصدر السابق، ص 197.

٨- روز، هـ. ج.؛ الديانة اليونانية القديمة، (سلسلة الألف كتاب - 569)، القاهرة، 1965، ص 80.

٩- المصدر السابق، ص 81.

النصوص فيها[1]. ولم يغب أمر مطابقة «هرميس» بالكوكب عطارد عن المصادر العربية الإسلامية[2]. في حين امتزجت «أثينا» و «أفروديت» بعشتار. أما «أرتميس» «ديانا» فكانت إلهة الصيد التي يقترن بها القوس وحيوان (الشكل 46). وهذه الصفات إن هي إلا صفات «نينورتا» إله الصيد. ويتضح لنا ذلك من بعض الأختام الأسطوانية العراقية، إلا أنه كان ذكراً لا أنثى. أما «ديمتر»، فكانت إلهة الزراعة لدى اليونان.

رغم تشابه أعمال وصفات الآلهة في كل من الوطن العربي واليونان، في أمثلة كثيرة، إلا أن بعض الآلهة انتقلت معها حتى أسماءها، مثل «أترغاتيس» (أتركاتس) المحوّر عن «عشتار»، التي عبدها الحضريون العرب باسم «أترعتا»[3]، «وكانت أولى المعبودات السامية التي دخلت عبادتها الأرض اللاتينية منذ القرن الثاني ق.م. فتفشت بين أوساط العبيد أولاً، وذلك بعد أن عمت هذه العبادة بلاد الشرق الأدنى، منتشرة من مناطق ما بين النهرين إلى جزر اليونان ومنها إلى روما، فإلى بريطانيا، بل حتى الحدود الشمالية للإمبراطورية. وذهب هيرودوتس إلى أنها هي أفروديت أورانيا نفسها». وقال «فلوطرخس»[4]:
«فلوطرخس»[4]:

«يرى البعض أنها أفروديت، والبعض الآخر هيرا. ويعتبرها غيرهم الطبيعة التي أخرجت من مبدأ الرطوبة بذور كل الكائنات»[5]. على أي حال، لقد «أتانا وصف لعبادتها في العصر الكلاسيكي كتبه لوكيانس وهوسوري من سمياط ولد نحو 125 م، وكان يكتب باليوناني. وصفات عبادتها كما كتب عنها لوكيانس هي صفات عبادة الإلهة الأم السامية... وانتشرت عبادة أتارغاتس بين اليونان في العصر السلوقي. وبواسطتهم وصلت إلى روما، حيث أقيم معبدها باسمها. وتشاهد في الآثار الرومانية جالسة على عرش بين أسدين»[6]. وقد «أعادت زوجة سلوقس (الأول) بناء معبد آثار غاتيس في بامبيس - هيرابوليس

١- سفر ومحمد علي؛ الحضر مدينة الشمس، بغداد، 1984.
٢- يشير القفطي في «تاريخ الحكماء»، أن هرميس هو من مدينة بابل، وإنه أول من بناها بعد نمرود. ومما اشتهر به براعته في الفلسفة والطب وكذا طباع الأعداد: تاريخ الحكماء؛ لايبزك، 1903، ص 346.
٣- سفر ومحمد علي؛ بغداد، 1974.
٤- فلوطرخس: مؤرخ يوناني، القرن الأول للميلاد.
٥- البستاني، بطرس؛ دائرة المعارف، بيروت، 1966، م 1، ص 246.
٦- حتي، فيليب؛ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، (ترجمة جورج حداد (و) عبد المنعم رافق) بيروت، 1958، ص 187-188.

Bambychierapolis (منبج)، حيث بقيت عبادة الإلهة السامية تزدهر. وبدأت أسرار جبيل تقترن بأفروديت وأدونيس، ولكن هذا لا يعني جعل المشرق هلينياً بقدر ما يعني جعل العالم الهليني شرقياً»[1]. وقال المؤرخ آرنولد توينبي «كانت الديانتان التبشيريتان اللتان شقتا طريقهما قبل غيرهما إلى قلب الأم الكبرى، والآلهة المصرية إيريس، وهي الزوج المخلص للإله الشهيد أوزيريس إله الزرع»[2]. لقد كان تشابه صفات الآلهة العراقية المصرية فيه ما جعل تتبع كلا المصدرين لإله واحد، وهو أمر يشير إلى أن بعض أصول الأساطير والإلهة العراقية - المصرية واحداً، فمثلاً في الوقت الذي أشرنا فيها إلى مشابهة ومطابقة الشمس البابلي بأبولو، نرى أن هناك من يشير إلى أن «عبادة الشمس كأب الكون قد وصلت إلى شمال إيجه من مصر في القرن الرابع عشر ق.م. وأثرت تأثيراً كبيراً في الطقوس المحلية، حيث نراها واضحة في أسطورة أورفيوس، وحتى نقرأ أيضاً عن زيارة أورفيوس المزعومة إلى مصر، التي تشير بدورها إلى اتجاه هذا التأثير. وإلى جانب كون كهنة أورفيوس المتأخرين كانوا يرتدون الملابس المصرية»[3].

كان آمون من آلهة مصر المتقدمة. شُيِّد له معبد الكرنك العتيد. ومع ذلك فإننا «نجد عبادة آمون الإله المصري تنتشر خارج مصر، ولا سيما بين اليونان. فنحن نجد أن لهذا الإله مكانته في أثينا التي عرفت عبادته قبل الثلث الأول من القرن الرابع ق.م. كما نجد أن الإسكندر المقدوني يقرنه بالإله زيوس Zeus كبير آلهة اليونان، ويتخذ منه إلهاً هادياً يستوحيه في أكثر من مناسبة أثناء حملاته التي حقق بها تكوين إمبراطوريته»[4].

لم يقف التأثير المصري عند ذلك الحد فقد أخذت مواصفات إلهة مصرية، ففي «أسطورة خلق تيفون (من اتحاد الربة الأم تارتاروس)، نقرأ كيف أن الأرباب قد خافت من تيفون فهربوا إلى مصر، حيث أخفوا أنفسهم على شكل حيوانات. فزووس حوّل نفسه إلى كبش، وأبولو إلى غراب، ودايونيسوس إلى معزى، وهيرا إلى بقرة بيضاء، وأرتميس إلى قطة، وأفروديت إلى سمكة، وإيريس إلى خنزير، وهرميس إلى طير أبو منجل... إلخ. وهذه الأسطورة مهمة. وقد لاحظ أهميتها

١- المصدر السابق، ص 281.
٢- توينبي، آرنولد؛ تاريخ الحضارة الهلينية، (ترجمة رمزي عبده)، مصر، 1963.
٣- الأحمد، سامي سعيد؛ حضارات الوطن العربي كخلفية للمدنية اليونانية، بغداد، 1980، ص 51.
٤- يحيى، لطفي عبد الوهاب، اليونان، بيروت، 1979، ص 30.

المفكر السوري لوقيانوس السمسياطي من القرن الثاني، حيث اعتقد بأن الأسطورة قد ابتدعت عن عبادة المصريين للأرباب على شكل حيوانات، ومطابقة أبابهم مع الأرباب اليونانية زووس وأمون (كبش)، هرميس - توت (طير أبو منجل)، هيرا - إيزيس (بقرة)، أرتميس، باشت (القطة) ...إلخ. علماً بأن القطة لم تدجن في اليونان القديمة»[1].

عندما نوغل في دراسة العناصر الحضارية التي نشأت على أرض الوطن العربي فإننا لن نتوقف عند نقاط محدودة لإيضاح مدى تغلغلها في اليونان، إذ إن هناك عناصر مسلم بيونانيتها، إلا أن البحث يزودنا بما يؤكد أن الأمر ليس كذلك.

لنأتي على سبيل المثال إلى هرقل: البطل المصارع المنسوب خطأ إلى اليونان. لقد اعتبره اليونان ابن زوس (زيوس) غير الشرعي من أمه «ألكميني»، والذي اتخذه أمفتريوس، زوج أمه، راعياً لأغنامه. ومن أجل أن يحصل الراعي هرقل على الأمن قتل الأسد الذي كان يقلق باله[2]. أما بالنسبة لاسمه فقد قيل إنه مشتق من اسم «هيرا»، وإنه «ليس من بين إلهة اليونان من يحمل مثله اسماً مشتقاً من إله آخر»[3].

وكما هو معروف أن «هرقل» مثل في الفن اليوناني بهيئة شخص ملتحٍ مفتول العضلات يحمل بيسراه جلد أسد وبيمناه هراوة.

وعندما نعود بأدراجنا إلى فن العراق القديم، نتذكر ذلك العاري والملتحي مفتول العضلات يصارع الوحوش، ويقدم العون للحيوانات الأليفة، وذلك منذ مدة تربو على ألفين وخمسمئة عام قبل أمثلة اليونان في تمثيل هرقل.

لكي نقارن بين أسلوبي التمثيل الفني للمشهد في كل من الفنين العراقي واليوناني، لا بد من الإشارة إلى أن اليونان كانوا يفضلون الاختصار والالتجاء إلى الرمز في تمثيل المشاهد، فهم على سبيل المثال حينما يريدون تمثيل أحد الأنهار يصورونه بهيئة رجل مضطجع. أما بالنسبة إلى «هرقل»، فبدلاً من تمثيل مشهد الصراع مع الأسود كاملاً صوّره بالمرحلة النهائية على شكل البطل ممسكاً بالهراوة بيد وبجلد الأسد بالأخرى، إشارة إلى الانتصار. على أي حال، لم ينته تمثيل البطل في الحقبة الكلاسيكية، وما يقابلها في الحقبة العربية قبل الإسلام، بما هو عليه في فن العراق القديم، ففي نماذج فنية من «الصالحية» بسوريا يظهر

١- الأحمد، سامي سعيد؛ حضارات الوطن العربي كخلفية للمدنية اليونانية، بغداد، 1980، ص 25.
٢- بيترلن؛ قصص من اليونان القديمة، (ترجمة د. محمد سمير عبد الحميد)، مصر، 1966، ص 125.
٣- عبد اللطيف أحمد علي؛ التاريخ اليوناني، بيروت، 1974، ج 2، ص 719.

وبيده الهراوة يضرب بها الأسد، أي بما هو عليه في الفن العراقي. على أي حال، إننا حتى حينما نأتي إلى النحت الآشوري، الذي يظهر فيه ولع الفنان العراقي بحبه للتفاصيل الدقيقة، نرى أنه يمثل «جلجامش» البطل يحمل بيسراه أسداً، الذي بدا صغيراً بالنسبة إليه، وبيمناه شعار الإله «نرجال» على شكل يشبه المنجل ينتهي برأس حيوان. وذلك في منحوتة من عاصمة «سرجون» (722-705 ق.م) «دورشروكين».

وكما نعلم أن «نركال» هو إله العالم السفلي في العقيدة العراقية القديمة. ومن المعلوم أن جلجامش عندما توفي أمسى قاضياً للعالم السفلي. وحينما نراجع تماثيل مملكة الحضر، من قرابة القرنين الثاني والثالث للميلاد، نرى أن الإله الحضري «نرجول» قد مثل تقريباً بخصائص مشابهة لما مثل لدى الآشوريين، إذ إنه لم يكن عارياً، بل يرتدي ملابسه، حيث أشاروا إليه «نرجول جندا»، أي كإله للجند. أما دخول «جلجامش» العالم السفلي، فله ما يوازيه في المعتقد اليوناني، إذ إن «هرقل» يدخل إلى هناك ليجلب «سربيروس» حارس العالم السفلي[1]. ومن الجلي أن الكلب ارتبط بنرجول أيضاً، ففي مدينة الحضر جاء تعبير «نرجول الكلب»[2]. وفي المعتقد الصابئي الحالي نرى أن كوكب المريخ هو «نيرغ» المحرف عن «نركال» السومري، الذي مثلوه أيضاً بشكل كلب. وهذا الأمر يشير إلى التسمية هي الأخرى ذات أصل عراقي، وإن اسم «هرقل» مأخوذ عن «نركال» أو «نرجول» الإله العراقي.

على أي حال، إذا كان ما ذهبت إليه مقارنة الأصول الفنية والتسمية، فإن الأستاذ طه باقر تقصى أمر التشابه الميثولوجي في قصة جلجامش وهرقل، قال:

«فمثلاً قصص هرقل تتشابه مع الملحمة، بحيث ذهب أكثر من باحث إلى أن أسس قصص هرقل تستند بالدرجة الأولى إلى أصول مستقاة من ملحمة جلجامش وصلت إلى بلاد اليونان عن طريق الفينيقيين، فكلا البطلين من أصل إلهي، وكلاهما اتخذ صاحباً وصديقاً حميماً هو إنكيدو بالنسبة لجلجامش ويوليسوس بالنسبة لهرقل. وكان السبب في جلب الكوارث إلى كل منهما امرأة

١- وهو واحد من أعمال هرقل الاثني عشر (براكسيز)، المصدر السابق، ص 722-726. ويراجع أيضاً: بيترلن، ص 154.

٢- سفر ومحمد علي؛ الكتابتان (70، 71). وحول المعتقد عينه لدى الصابئة يراجع: كتاب الصابئة المندائيون، تأليف الليدي دراور (ترجمة غضبان الرومي).

إلهة هي عشتار في حالة جلجامش وديني‌ريا أو الإلهة هيرا بالنسبة إلى هرقل. وكلاهما قتل الأسود وتغلب على الثيران السماوية المقدسة. ووجد هرقل العشب السحري للخلود كما فعل جلجامش. وزار هرقل جزيرة الموت، كما أبحر جلجامش عبر بحر الموت. ومثل هرقل قتل جلجامش الوحوش الضارية واكتسى بجلودها؛ إلى غير ذلك من نقاط الشبه الكثيرة»[1].

من القصص المهمة التي تناولتها كتابات اليونان ما ينسب إليهم في قصة عن الطوفان. وحسب مصادرهم، أن الأرض عاشت عصراً ذهبياً، بعده حلت القسوة والجور بين الناس، الأمر الذي دفع الآلهة إلى إحلال الطوفان لإغراقهم، ما عدا اثنين كتب لهم النجاة هما ديكاليون وبيرا، اللذان وضعا نفسيهما في صندوق أعد لذلك. وبعد أن انهمر الماء مدراراً من السماء مدة تسعة أيام وتسع ليال امتلأت الوديان بالماء، وعلت حتى طالت قمم الجبال أمواجه، مما لم ينفع المعتصمين بها اعتصامهم. وبعد تلك الأحداث الرهيبة أخذ الماء ينحسر وظهرت اليابسة، الأمر الذي جعل الصندوق يرتطم بها فوق جبل «بارناسوس» الذي كان وقفاً على الآلهة. ومما تشير إليه القصص أن «زوس» أراد منه أن يعرف مركز الأرض، فأرسل حمامتين التقيتا عنده، مما جعله يقتنع بأنه مركز الأرض[2].

على أي حال، حينما نأتي إلى فكر العراق القديم، نرى أن قصة الطوفان شكلت حيزاً مهماً فيه، حتى إن القرآن الكريم تحدث عن ذلك.

قبل كل شيء، إن الفيضانات التي حدثت وتحدث في العراق أمر طبيعي واعتيادي في العراق، لوجود نهرين عظيمين وأرض منخفضة في الوسط والجنوب، مما يجعل أمر اكتساحها طبيعياً عند هطول أمطار غزيرة وتراكم الثلوج في أعالي الجبال. أما بالنسبة إلى اليونان مثلاً، فلا يُعرف عن الأرض التي حلّوا فيها مثل هذا الهلع الذي تخلقه الأنهار لا في الأجزاء الغربية من بلاد الأنضول، أو أيونيا، ولا في شبه جزيرة اليونان نفسها. أضف إلى ذلك أن قصة الطوفان تمتد بجذورها إلى نحو خمسة آلاف سنة أو يزيد في المعتقد العراقي.

ولو أتينا إلى قصة الطوفان في الأدب العراقي نراها أكثر إمتاعاً وتفصيلاً مما في اليونانية، بل أقرب إلى الواقع، لأن الصندوق لا يمكن أن يضم شخصين لمدة طويلة مع طعامهما وشرابهما، في حين يمكن أن يتوافر في السفينة ما يساعد على البقاء. وفي القصة العراقية استمر انهمار الماء سبعة أيام وسبع ليال، في حين

١- طه باقر؛ ملحمة جلجامش، (سلسلة الثقافة العامة - 8)، بغداد، 1971، ص 135.

٢- بيترلن؛ قصص من اليونان القديمة، (ترجمة د. محمد سمير عبد الحميد)، مصر، 1966، ص 1-2.

كانت تسعة في اليونانية، وهو خلاف بسيط. وفي القصتين ارتفع الماء حتى تخطى قمم الجبال. ولم ينج من ذلك إلا «أوتونايشتم» وصحبه من الصالحين في العراقية، وديكاليون وزوجه في اليونانية. وفي النموذجين كانت أعمال الناس مجلبة لإجراءات الإلهة. وفي القصة العراقية أرسل أوتونابشتم الحمامة ليعرف فيما إذا انحسر الماء عن جزء من الأرض، حيث عادت إذ لا موطئ قدم، ثم أرسل السنونو ليعود بما عادت بسببه. بعدها أطلق الغراب، الذي ذهب ولم يعد، إشارة إلى ظهور اليابسة. وفي القصة اليونانية أرسل «زوس» الحمامتين ليعرف منها مركز الأرض، وتأكد أنه حيث رسا صندوق الزوجين. وفي القصتين رست السفينة والصندوق على قمة جبل، الذي هو في العراقية «نصير»، وفي اليونانية «بارناسوس». وكما يبدو أن المقطع الثاني من الكلمة، أي «ناسوس»، تحريف عن «نصير» الذي يذكره لنا العاهل الآشوري آشورناصربال الثاني (388-859 ق.م) في حولياته إلى الجنوب من وادي الزاب الصغير[1].

من الأمور المهمة في كل الحضارات محاولة الناس إيجاد تفسير لنشوء الكون، وتبريرات لخلق البشر. وفي الفكر العراقي القديم عالج المفكرون العراقيون هذا الأمر بشكل جلب الإقناع لشعبهم بما كان لديهم عناصر المعرفة. أما اليونان، فبماذا فكروا بصدد ذلك؟

جاء في القصص اليوناني عن بداية نشوء الكون ما يلي:

«في الماضي السحيق في بداية الزمان، لم يكن هناك سوى كتلة معتمة هائلة تسمى السديم CHAOS. وفي هذا السديم كانت تختفي كل الأشياء... وبعد أن استمر هذا السديم زماناً طويلاً، تبدد شمله وافترقت الأرض عن السماء، فارتفعت الشمس والقمر والنجوم إلى أعلى، بينما هبطت الأحجار والأشجار والماء إلى أسفل واستقرت مع الأرض[2].

أما في العراق القديم، فقد جاء عن نشوء الكون ما يوضح ذلك، قبل مدة لا تقل عن ألفي عام من أمثلة اليونان:

في إحدى القصائد السومرية جاء ما يلي:

«بعد أن أُبعدت السماء عن الأرض،
وبعد أن فصلت الأرض عن السماء،
وبعد أن عُيِّن اسم الإنسان (خلق الإنسان)،
وبعد أن أخذ السماء «آن» (إله السماء)،

١- طه باقر؛ ملحمة جلجامش، ص 135.

٢- بيترلن؛ قصص من اليونان القديمة، (ترجمة د. محمد سمير عبد الحميد)، مصر، 1966، ص 1-2.

وبعد أن أخذ الأرض «أنليل» (إله الهواء)[1].

ومن الجلي أن السطرين الأولين واضحان بشكل لا يترك الشك بأن قدماء العراق اعتقدوا بأن السماء والأرض كانتا كتلة واحدة وانفصل أحدهما عن الآخر، وهو ما يؤكد أسبقيتهم في هذه الفكرة التي تسمى حالياً نظرية الانفجار العظيم BIG BANG THEORY.

ومن المعلوم أن القرآن الكريم تحدث في هذا الأمر، قوله تعالى: (**..السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا..**) (سورة الأنبياء: الآية 30)

وفي قصيدة أخرى أشار واضعها بأن «أنليل»:

«أراد أن يبعد السماء عن الأرض،

«وأراد أن يبعد الأرض عن السماء»[2].

أما الأسطورة «الماشية والغلة» فتصف الكتلة السديمية بأنها «جبل السماء والأرض» التي ولد فيها الإله «آن» أو «أنو» كبير الإلهة[3]. وفي لوح يعدد الآلهة السومرية، يصف الإلهة «نمو» بأنها «الأم التي ولدت السماء والأرض».

ولو أتينا إلى اسم هذه الإلهة نراه يكتب بالعلامة الصورية التي تعبر عن «البحر الأول». وهذا المصطلح مهم جداً لأنه يشير إلى أن السماء والأرض خلقا أو تولدا عن «البحر الأول»[4].

إذا كان أمر خلق الكون ما يمكن التعبير عنه بسطور فإن مسألة خلق البشر والآلهة فيه ما أتعب فكر الإنسان آلاف السنين. وإذا كان هو ديدن من عاش في أغوار الماضي، فلسنا اليوم قادرين على حل هذا اللغز على الرغم مما نمتلكه من طائل العلم ومعقد الأجهزة. ترى كيف عالج الفكران العراقي واليوناني ذلك؟

جاء في المعتقد اليوناني:

«هناك في السماء إله يدعى يورانوس Oranus؛ وفي الأرض إلهة اسمها جايا Gaea، ثم صارا زوجين وأنجبا أبناء كثيرين، من بينهم ستة قبيحو الخلقة، واثنا عشر جميلو الصورة. وقد كان واحد من المجموعة الأولى إما مئة ذراع أو عين واحدة. وذوو المئة ذراع كان لكل منهم خمسون رأساً، وكانت رأس كل منهم كالجبل في ضخامته، تثير الهلع والرعب؛ أما الآخرون فكان لكل منهم لحية واحدة في منتصف جبهته، وهي في حجمها كعجلة عربة كبيرة. أما إخوتهم الذين

١- كريمر، صمويل؛ من ألواح سومر، (ترجمة طه باقر)، مصر، ص 160-162.

٢- المصدر السابق، ص 160-162.

٣- المصدر السابق، ص 160-162.

٤- المصدر السابق، ص 160-162.

تميزوا بالجمال، الذكور منهم والإناث، فقد كانوا في صورة البشر، إلا أنهم أكبر وأعظم. وقد شن الآلهة الصغار الحرب على الآلهة الكبار، وأرسلوا في طلب المشوهين من ذوي المئة ذراع والعين الواحدة»[1].

وفي المعتقد العراقي القديم توجد أكثر من أسطورة حول نشوء الآلهة والحياة.

ولو أتينا إلى قصة الخليقة البابلية، التي هي أكثر انتشاراً من غيرها، نراها تتحدث عن العنصرين الأساسيين في الخلق وهما: الماء العذب (أبسو) والمالح (تيامات)، «ثم جاء منهما إلهان هما «لخمو» و «لخامو»، تولد منهما بعد مرور الزمان إلهان آخران هما «أنشار» و «كيشار» اللذان ولّدا الإله «أنو» الذي نافس آباءه الآلهة العتيقة الأخرى. ثم جاءت من بعد ذلك الآلهة الحديثة الأخرى. وبعد حين نشأ نزاع بين هذين الجيلين من الآلهة، لأن الآلهة الحديثة تحزبت معاً لمناوأة الآلهة القديمة، وأرادت أن تحل النظام في العالم بدلاً من العماء والفوضى، وأن تستبد بشؤون الكون دونها، فأحفظ هذا الأمر الآلهة العتيقة، لذلك عزمت بزعامة الإلهة «أبسو» وزوجه «تيامات» على إحباط هذه المؤامرة وكبح جماح الآلهة الحديثة المتمردة بشن الحرب عليها. وقبل أن تشرع عليهم الإلهة «أيا» بالمكيدة عزم على ردها، واستطاع بسحره المقدس وبحكمته أن يقضي على الإله «أبسو» وولده «مردوخ»، الذي كان على أتم ما يكون من كمال الخلق وقرة عين أبيه[2]. وتتحدث قصة أخرى عن زواج الإلهة الأرض من ابنها «أماكندو»، الذي قتل أباه «خاين»، ثم تقضي بعدها الإلهة البحر على أمها الأرض[3].

من مقارنة نصوص الخليقة في المصدرين العراقي واليوناني نرى تشابهاً بيناً بينهما، فقد تولد الكون عن إلهين وإلهة انقسموا إلى قسمين، ولكل من المجموعتين نمط في منهجه: الأولى تريد النظام والأخرى الفوضى، في القصة العراقية، في حين نرى آلهة قبيحة الخلقة وجميلة الخلقة في اليونانية. وعلى أي حال - كما رأينا- تميز «مردوخ» بالجمال وكمال الخلقة أيضاً، ومقتل «تيامت» ذات الوجه القبيح التي قتلها «مردوخ» ومن دمها خلق الإنسان.

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن القصة اليونانية تبدأ بزوجين من الآلهة: «أورانس» و «جيا» أو «جي». وفي العقيدة العراقية تبدأ بزواج واقتران إله السماء أنو بالأرض؛ يتولد المطر ثم تشرق الحياة إثر ذلك. وهناك نقطة جديرة بالملاحظة: أن اسم «جي» أو «جيا» يطابق «كي» السومرية التي تعني الأرض.

١- بيترلن؛ قصص من اليونان القديمة، (ترجمة د. محمد سمير عبد الحميد)، مصر، 1966، ص 5.
٢- طه باقر؛ مقدمة في أدب العراق القديم، بغداد، 1976، ص 79.
٣- المصدر السابق، ص 94.

أما أورانوس، فإن من يتطلع إلى القسم الثاني منه يرى فيه اسم «أنو»، والسين يونانية مضافة. أما القسم الأول «أور» فربما من السومرية أيضاً وتعني الكلب.

عشتار، تموز، إيزيس، أوزيريس، دايونيسوس، باخوس:

تحتل قصة عشتار وتموز مكان الصدارة في الفكر العراقي القديم، وكذا «إيريس - أوزيريس» في تراث مصر القديم. وعن هذين الأصلين اتخذ اليونان أسطورة «دايونيسوس» والرومان «باخوس». وعلى الرغم من اختلاف تسمية الآلهة، إلا أنها تؤدي منطلقاً لموضوع متشابه أثر بشكل بليغ في شعوب العالم. ترى ما هو منطلق تلك الأسطورة؟ وكيف اتخذت سبيلها إلى اليونان؟ وما هي الصيغة التي انتقلت بها إلى عالمهم؟

«الربيع تلك الومضة المجددة للحياة، وميقات ما يتبعه من فصول، كان المحرك الأساس لخيال الإنسان العراقي لاعتبارات جمالية واقتصادية. وإذا كنا اليوم نعرف أسباب تتابع الفصول، فإن أبناء وادي الرافدين لم تكن لديهم معرفة بانحراف محور الأرض ودورانها حول الشمس، لذا تفتق خيال العراقيين الخصب ليبرر تبدل الفصول من خلال قصة طريفة بطلاها إلهة وإله: إينانا (عشتار) ودموزي (تموز)، اللذان انعكست أحداث حبهما على الأرض لتشكل الربيع وبقية الفصول. وعلى الرغم من طرافة هذه الأسطورة وروعتها إلا أن أياً منا قد يسأل عن أسماء واضعيها ولا يجد لذلك جواباً»[1].

إذاً، في الربيع تشرق الحياة ببهجتها وأنوارها بإطلالة تموز من عالمه السفلي حيث أسرته شياطين ذلك العالم. ويستمر النماء لغاية فصل الصيف الذي يكنفه الجفاف، حيث تعود الحياة أدراجها ويذهب تموز في عالمه السفلي، في شهره الذي لا زلنا نعرفه به إلى اليوم «تموز». ولا يمكث الإله المذكور طوال حياته هناك، لأنه يتبادل وأخته «كشتن - أنا» موقعهما ليمكث ستة أشهر كل منهما، فحتى يكون شروق الشمس في أقصى نقطة من الجنوب مسجلة أطول ليل وأقصر نهار. بعدها تتحرك ثانية صوب الشمال لأقصى مدى لها في فترة

١- الشمس؛ ماجد؛ «تموز وعشتار يصنعان الفصول»، مجلة أفاق عربية، بغداد، 1985، العدد 7، ص 76.

الانقلاب الصيفي بعد منتصف حزيران، ومن الجلي أن ما بين فترتي الانقلابين لدينا فترة الاعتدال الربيعي، حيث الاحتفال ببعث تموز وإطلالته الكبرى!

والسؤال: في أي وقت من الربيع كان يحصل بعث تموز؟

تجيبنا المصادر القديمة أن ذلك كان يتم في شهر نيسان[١]، وقد أشار ابن النديم إلى ذلك أيضاً[٢]. ولكن هل تغير الأمر إلى شهر آخر؟ إن «أبا الريحان البيروني» يشير إلى أن الاحتفال بالنسبة الجديدة كان يتم في أطول يوم في السنة[٣]. أي إلى شهر يلي نيسان بشهرين. ولكن ماذا عن اتخاذ آذار في فترة تالية لعهود العراق القديم؟ إن ذلك يتم لوجود رجوع بمقدار درجة واحدة كل (70) سنة، ويستغرق تغير البرج الواحد (2100) سنة. أما الآن فإن نقطة الاعتدال تحصل في برج الحوت، أي قبل آذار[٤].

في العراق كانت «عشتار» زوجة «تموز»، في حين كانت «إيزيس» في مصر أماً لأوزيريس، وهي التي تعيد بعثه بعد أن اعتدت عليه عوالم نالت منه.

وفي سوريا اختلفت الأسطورة بعض الشيء عن العراق. ففي أمثلة عديدة كان «تموز» لا يسمى باسمه بل بلقبه «السيد» (أدون) أو «سيدي» (أدوناي). وهناك كان «من خصائصه الجمال فالحب، ثم الموت فالبعث. وفي ذلك إشارة إلى توالي فصول السنة، ولم يعرف له اسم، شأن سائر المعبودات الفينيقية، لأن العباد تجنبوا دوماً إطلاق الإعلام عليها، احتراماً لها أو خوفاً منها، واكتفوا، للدلالة على ميزاتها، بالنعوت والأتعاب يستحصلونها غالباً من وظيفة كل منها»[٥].

«أما صيغتها اليونانية (دايونيسوس) فمنقولة عن أدون الفينيقية، وهي تفيد الرب والسيد. وكان الفينيقيون، في رحلاتهم إلى بلاد اليونان واتصالهم بسكانها، قد نقلوا إليها حكاية هذا الرب، فأعجبوا بها، وحفظوها وتناقلوها، وسجلوا نتفاً منها مكيفة حسب مخيلتهم المتزايدة عصراً بعد عصر، حتى نسب إليهم...

كما وإن الترادف واقع بين أدون الفينيقي وتموز البابلي الرامز إلى الشمس علة الحياة، وبينه وبين سواه من آلهة الشعوب القديمة»[٦].

١- ومن المعروف أن هذا الشهر يمثله برج الثور، وهو برج كوكب الزهرة، وفيه تدخل. ويتم الاحتفال عند إطلالة أول هلال.

٢- ابن النديم؛ الفهرست، بيروت، ص 322.

٣- البيروني؛ القانون المسعودي، الدكن 1357.

٤- وقد حسب بطليموس الكلوذي تغير الدرجة لكل مئة عام، في حين حسبه العرب كل (96) عاماً، أي إن ذلك أقرب للصواب، وهو (70) عاماً.

٥- البستاني، دائرة المعارف، م 1، ص 277.

٦- المصدر السابق، ص 277.

إذا كانت مآثر العراق القديم تسجل أقدم وثيقة مكتوبة عن تموز منذ عهود فجر السلالات، قيل نحو 4700 سنة مضت، فإن أول إشارة إليه بصيغة «أدونيس» أو «دايونيسوس» جاءتنا على لسان الشاعر اليوناني «هزيزدوس» منذ القرن الثامن ق.م[1].

إذا كانت الفقرات السابقة مأخوذة عن كاتب عربي، ترى ما الذي يقوله مؤرخ غربي مثل «ديورانت»؟ لقد قال عن «ديونيسوس» إنه: «الذي لم يقبل بين إلهة أولمبس إلا في أخريات أيامه، ذلك أنه في أول الأمر منن إلهة تراقيا، قبل أن تهبه تلك البلاد إلى اليونان. وكان في موطنه الأصلي إله الشراب المعصور من الشعير، وكان اسمه فيها سترازيوس Strazius. فلما جاء بلاد اليونان أصبح إله الخمر، ومغذي الكروم وجارحها. وكان في بادئ الأمر إلهاً للخصب، ثم أصبح إله السكر، وانتهى أمره بأن صار ابن الله الذي مات لينجي البشر»[2].

من نص «ديورانت» نشاهد أنه لا يشير لديونيسوس أصلاً غير «تراقيا»، مع الإشارة إلى أنه «كان في موطنه الأصلي إله الشراب»، «فلما جاء بلاد اليونان»، وهو ما يشير إلى انتمائه لأصل آخر غير يوناني. ولو أتينا إلى الفقرات التالية نراه يقول: فكان اليونان يتخيلون في صورة زجريوس Zagereus أي «الطفل المقرن» الذي ولد لزيوس من أخته برسفوني. وكان أحب أبناء زيوس إليه. ويجلس إلى جواره على عرشه في السماء. ولما حسدته هيرا على منزلته وأغرت الجبابرة بقتله، بدله زيوس بماعز ثم بثور ليخفيه عن الأنظار، ولكن الجبابرة قبضوا عليه وهو في هذه الصورة الثانية»[3]... على أي حال، إننا من الفقرات الأخيرة التي يوردها نرى أنه:

1- زجريوس «الطفل المقرن».
2- أخته «برسيفوني» حسدته.
3- أمرت الجبابرة بقتله ثم تبديل «زيوس» لصورته بماعز ثم بثور. وقبضوا عليه.

إن من يطالع قصة تموز وعشتار يرى أن لتموز سمات الآلهة، وبالتالي فهو يتميز بوجود القرنين في رأسه. وفي القصة العراقية تجلب «عشتار الويل

١- ديورانت، ول؛ قصة الحضارة، (ترجمة محمد بدران)، القاهرة، 1969، ج 1، م 2، ص 338.
٢- ديورانت، ول؛ قصة الحضارة، (ترجمة محمد بدران)، القاهرة، 1969، ج 1، م 2، ص 338.
٣- المصدر السابق، ص 338.

لتموز لا حسداً له، بل ليكون بمثابة البديل عنها في العالم السفلي حينما طلبت آلهة ذلك العالم منها أن تأتي بالبديل ليتسنى لهم ترك العالم السفلي. ومن خلال مسيرتها أمرت عشتار الشياطين الجبابرة أن يمسكوا بتموز حينما عثروا عليه في زريبة الحيوان، كما إن إله الشمس حاول إخفاءه بعدة صور، إلا أن الشياطين تعرفوا عليه. والمشابهات المذكورة تشير إلى اقتباس اليونان بوضوح.

يستمر «ديورانت» بالقول إن الجبابرة «قبضوا عليه وهو في هذه الصورة (أي الثور)، وقطعوا جسمه إرباً، سلقوها في قدر. وفعلت به أثينا فعل ترلوني Treliwanay، فأنقذت قلبه وحملته إلى زيوس، وإعطاء زيوس إلى سيميلي Semele، فحملت به وولدت الإله مرة أخرى، وسمي بعد مولده ديونيسوس».

وعلى أي حال، إن القصة العراقية لا تشير إلى ذلك، بل إننا نرى أن تقطيع جسم الثور يماثل تقطيع «أدوناي» في القصة السورية، وكذا المصرية حينما تتحدث عن «أوزيريس». وفي الفقرة الثانية نرى أن حفظ قلب الإله يؤدي إلى عودته. في حين تشير القصة المصرية إلى أن حفظ عضوه التناسلي يؤدي إلى هذه النتيجة[1].

إن عدم ذكر «ديورانت» وآخرون لأصل «دايونيسوس» وآلهة أخرى يشير وبشكل واضح إلى رغبة أولئك الكتاب بنسب كل عنصر، جهد الاستطاعة، إلى عامل الأصالة والعراقة لا إلى اقتباسات اليونان. ولكن إذا كان هذا ما يشير إليه كتبة أوروبيون محدثون، فماذا قال اليونان أنفسهم في ذلك؟ قال «بلوتارخ»[2]: «أما عن القول بأن أوزريوس هو ذاته ديونيسوس، فمن أدرى منك بذلك ياكلسيا، وأنت من زعيمات «الثوئياديس» Thyiades (أي عابدات ديونيسوس) في دلفوي، ثم رؤيتك الأسرار المقدسة وفقاً لطقوس أوزيريس، كما حدث لوالدتك وأبيك من قبلك؟ وكذّا إن وجب علينا أن نقيم الدليل على ذلك خدمة للغير، فما أحرانا أن نترك هذه الأمور السرية وشأنها»[3]. أما مؤرخ اليونان المعروف «هيرودوتس» فإنه وجد «بين

١- حول ملحمة البعل يراجع: فريحة، أنيس؛ ملاحم وأساطير من الأدب السامي، دار النهار للنشر، ط 1، ص 117، 161.

٢- بلوتارخ أو بلوتارخس، مؤرخ يوناني عاش في الفترة بين (50-125 م) في روما وجال في بلدان الشرق، وله من الكتب «السير المقارنة» ويتحدث فيه عن مشاهير الرومان واليونان.

٣- روز؛ الديانة اليونانية القديمة، ص 141.

أسطورتي ديونيسوس وأوزيريس من أوجه الشبه الكثيرة ما جعله يجمع بين الآلهة في مقاله الذي يعتبر أول ما كتب من المقالات في مقارنة الأديان»[1].

على أي حال، إن التقاء الأساطير الهلنستية واستعمار اليونان لأرضه لا يعني أن التشابه بينهما إنما يعود إلى توليف ساذج تمليه العفوية حسب رأي كتاب الغرب[2].

إن من يوغل في دراسة الفكر اليوناني يرى أن أرجاء قصة تموز تتردد في تفاصيل أخرى، إذ إن «نزول برسيفون إلى العالم السفلي حيث تصورها الأسطورة تسير مرة في السهل التيسي مع حوريات المحيط يجمعن الأوراد. فاقتطفت برسيفون وردة بنفسجية، فلما قدمت يدها إلى الوردة انفتحت الأرض وخرج رب العالم السفلي هاديس بعربته وأمسك بالربة برسيفون وحملها إلى والدها ولم يرها أي من الأرباب والناس عدا هيكاته والرب هيليوس (الشمس) الذي لا يغيب عن عينيه شيء. وكانت برسيفون تأمل أن ترى أمها وجموع الأرباب الآخرين، وأرجعت الجبال والبحار صدى صراخ رأسها من الحزن، وصار البشر أمام خطر الهلاك وسكان جبل أولمبس قد تتوقف أضاحيهم ونذورهم إذا لم يفكر زووس في حل المعضلة فأرسل من يخلص برسيفون ويخرجها من الهلاك. فالتشابه بين القصتين العراقية واليونانية كبير. فتوسط زووس في إرجاع برسيفون كان سيعرض البشر إلى الهلاك، الأمر الذي سيؤدي إلى توقف الأضاحي والنذور إلى الأرباب القاطنين في أولمبس، وكذا في قصة عشتار، فقد أدى غيابها إلى توقف الحياة على الأرض»[3].

١- ديورانت، ول؛ قصة الحضارة، (ترجمة محمد بدران)، القاهرة، 1969، ج 1، م 2، ص 338.
٢- إلا أن ديورانت نفسه مثلاً لا يستقصي هذه الحقيقة الواضحة في الموضوع.
٣- الأحمد، سامي سعيد؛ حضارات الوطن العربي كخلفية للحضارة اليونانية، بغداد 1980، ص 32.